تأملات في الأمثال القرآنية

الحلقة الأولى

السيد أحمد الواحدي

من الواضح للمتأمل عميقاً في دراسة الأمثال القرآنية أهمية الأداء الفني الذي يحركه المثل في صور تستحضر الحقائق المعرفية المجردة عبر مقايسة فنية بارعة تربط الغامض بالواضح والخفي بالظاهر الجليّ بما يلامس شغاف القلب المتفتح على ادراك الحقائق البعيدة وكأنها شاخصة تكاد تنطق أو تكاد تجري أمام ناظريك بنبض الروح والحياة بومضة سريعة ووضوح تام يعجز الأداء الوصفي عن إثارتها إلاّ على نحو محدد ومساحة ضيّقة لا ينفذ الى ثنايا النفس واختلاجات العاطفة في المشاهد المحسوس ذلك أن عنصر التشبيه في المثل القرآني يزاوج بين حاجة العقل للمرآة الصادقة وحاجة المشاعر للإدراك السليم ... فالقرآن الكريم بوصفه كتاب هداية ونور يصوغ الأمثال في مناسبات شتى تنهض بالعقل البشري الى تلمس فن التمثيل والمقارنة واستلهام التطبيقات العملية مما يخرج الوعي من دائرة الجمود الى فضاء السعي الدائب الذي يصل بين الأشياء على نحو تنتظم فيه المفارقات الواضحة بين نجد خير ونجد شر لتنهي أزمة الشك والارتياب وعذاب القلق والحيرة والضياع حيث لا يهدأ في معترك النور والظلام الا باستعادة سراج الذاكرة واضاءات التفكير السوي وتلك وظيفة المثل القرآني فيما يظهر من قوله سبحانه وتعالى ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾ الحشر :٢١ حيث تشتمل على الحكمة والعظة والاعتبار وترسيخ قيم الأنبياء الخالدة والاستفادة من تجاربهم والوقوف عند المحطات البارزة من مواقع جهادهم الموصول بعمارة الأرض بعقيدة التوحيد بخطاب لا يتنكر للعلم وللحق وبلغة

حوارية مثلى تستند على مناهج الاستدلال وروعة البيان الأمر الذي جعل الفلاسفة والمفكرين والعلماء ينحنون خشوعاً في دوحة الأمثال القرآنية وأسرارها التي لا يكاد يعقلها الا العالمون ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون**﴾ العنكبوت : ٤٣ فالعالمون يتعقلون جلال المعنى وبهاء الصورة أما من أرخى على عينيه غشاوة الجهل وران على قلبه الريب فلم يحتمل ذائقة الجمال وفهم التمايز بين كلام وكلام فيقول ساخراً : « ماذا أراد الله بهذا مثلاً ... » .

واذن سنقف من خلال هذه الدراسة على ملمح بارز من وجوه الاعجاز القرآني بما يعزّز تجدّد النص القرآني وقدرته الربانية على الاحاطة بمتغيرات الزمان والمكان واستمرار دعوته في تحدي الأنس والجن على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولعلنا من خلال معالجة موضوع ـ الأمثال القرآنية ـ نسوق الحديث بشيء من التفسير والتوضيح لفهم الأبعاد المتنوعة لدلالات المثل من خلال وعي الترابط الوثيق لاركانه بمعرفة المثل والممثل به ووجه المماثلة عسى أن نوفق من خلال هذا العمل المتواضع لتيسير القرآن للذكر لا سيما في أوساط أبنائنا الطامحين الى محاضن القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيعظّمون شعائره ويلتزمون أحكامه ويعملون بوصاياه ويعتبرون بأمثاله ويتدبّرون آياته جميعها حتى تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « القرآن على خمسة : حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال » ـ ارشاد الديلمي ـ بلى : ﴿**قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور**﴾

يونس : ٥٧ .

وقد قمنا بعرض الأمثال القرآنية على نسق ترتيب السور دون التبويب الموضوعي مما يعطي لهذا العمل صفة المعجم الذي يؤسس لدراسات أوسع وأرحب في مجال القراءة الموضوعية للأمثال بإذن الله .

سورة البقرة

المثل الأول :

﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾البقرة:١٧-١٨

الممثل : المنافقون وقد عرضت الآيات السابقة شيئاً من ملامح شخصيتهم النفسية والعقلية .

الممثل به : الذي استوقد ناراً : اي أشعلها .

وجه التمثيل : إما النور أو الظلمة أو كلاهما في الحالتين ذلك أن النور إما ظاهر محسوس بمادته تراه رأي العين وهو أثر النار المستوقدة هنا أو معنوي وهو أثر الإيمان والظلمة كذلك فالظاهر من الظلمة انطفاء يذهب بشعلة النار والمعنوي منها انطفاء البصيرة فتسقط النفس في مهاوي الخيبة والفشل الناتج من غياب الإيمان. ولا إشكال في تشبيه الجمع وهم المنافقون بصيغة المفرد وهو الذي استوقد ناراً لجواز تقدير شيء إمّا في المشبه نحو ـ كل فرد ـ أو في المشبه به كما في كلمة ـ جنس ـ أو فيهما مثل كلمة ـ حكاية ـ فعلى الأول يكون تشبيه الفرد بالمفرد : اي مثل كل واحد من المنافقين كمثل الذي استوقد ناراً وعلى الثاني يكون تشبيه الجمع بالجمع : أي مثل المنافقين كمثل جنس الذي استوقد ناراً وعلى الثالث يكون تشبيه المعنى بالمعنى اي : مثل حكاية المنافقين كمثل حكاية الذي استوقد ناراً فيتطابقان .

ثم إن الإيمان باعتبار تجلياته يسعى بين يديّ المؤمن كالنور الساطع فكما أن النور يهدي سالك الطريق الى غاية مقصوده فيبدّد من حوله مخاوف الظلمة والحيرة كذلك أقمار الإيمان المضيئة ترشد صاحبها الى أقصى غايات الكمال والجمال فيمضي ببركة هذا النور آمناً مطمئناً في دينه ودنياه ...

وكذلك الكفر فهو باعتبار الخسران وبما يترتب عليه من حجب تحول بين الإنسان ومنافذ الرؤية أشبه ما يكون بسواد الظلمة الحالكة التي لا يؤمن معها من الوقوع في شرك المخاطر والأهوال كذلك الكفر ينتهي بصاحبه الى السقوط في شرور النفس وسيئات الهوى فتزل قدمه عند أول عثرة ويجزع عند أول نازلة وهو ما بين ذلك كله يخبط في الهلكة خبط عشواء . وإذن فالمنافق بشخصيته المزدوجة

حينما يظهر الإيمان بلسانه ويخفي الكفر في قلبه قد ينتفع بظاهر إيمانه بحفظ ماله ودمه وعرضه بيد أنه في قرارة الكفر الذي يخفيه يحصد غرسة أشواكه المستورة عن أعين الناس ويشقى بها وحده في عذاب من الخيبة والتباب فتشبيه المنافق في صورة الذي استوقد ناراً فاستفاد من ضوئها استفادة شكلية عابرة فاذا تلاشى الضوء من حوله تراه حائراً في غربة نفاقه لا يهتدي الى سبيل ... وعلى هذا تجد أن التشبيه الرائع من جهة استفادة كل من المشبه والمشبه به مما يترتب على الايمان واشعال النار يعتبر تشبيهاً تاماً حتى ولو لم يكن المنافق قد آمن با لله سبحانه على حقيقة الايمان تماماً مثل ما أوقد المستوقد ناره على حقيقة النار . وتظهر بلاغة الصورة على نحو أتم في إمعان النظر بعاقبة كل منهما لأنهما ينتهيان معاً الى صحارى الخيبة ومهاوي الخسران بعدما انتفعا بالإضاءة في برهة من الزمان ...!

ولك أن تقول أن لفتة التشبيه ناظرة إلى تبيان مواجع الخيبة وفداحة الخسارة لكلا الفريقين لبداهة أن من كان متنعماً بنعمة ومنتفعاً بها في آن ما ثم يحرم منها وتنزوي عنه يكابد أسوأ ما يمكن أن يكابده المتحسر على كنز كان بين يديه ثم ضاع .. فهذه الحسرة ولوعتها أشد إيلاماً للروح ممن أصيب بحرمان النعمة من أول الحياة وعلى هذا يجري شأن المنافق الذي انتفع من ظاهر إيمانه حيناً من الوقت حيث يتذوق من طعم حسرته وخداعه ما لم يتذوقه الكافر العنيد الذي لم ير نور الاسلام قط ولخبث هذه السريرة وبشاعة هذا الالتواء كان المنافق أشد عذاباً من الكافر يوم القيامة .

﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً**﴾النساء:١٤٥ وأسفل الدركات قعر جهنم أعد للمنافقين مع أنك لا تجد في التعبير عن عذاب الكافرين غلظة كهذه الغلظة والسر في ذلك أن المنافق في سوء طويته قد امتهن حرمتين حرمة الايمان وحرمة الصدق وارتكب جريمتين جريمة الكفر وجريمة الخداع والنفاق .

فالمنافقون هم العدو فاحذروهم .. ﴿ **صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون** ﴾ تأتي هذه الأوصاف كخصائص لتعرية النوازع الدفينة في سلوك المنافقين وتعطيلهم لأهم مصادر الوعي والمعرفة تكملة للحكاية التي تستدعي ضرورة دراسة هذه الظاهرة ومكوناتها الفكرية والنفسية فالصم والبكم والعمي على

الترتيب جمع الأصم والأبكم والأعمى الذي لا يسمع ولا ينطق ولا يبصر فهل المنافق هكذا حقيقة ؟

الواقع أن هذه الأوصاف إما لبيان حالهم في الآخرة فيكون استعمالها على نحو الحقيقة لقوله سبحانه ﴿**ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً**﴾ الاسراء : ٩٧.

وإما لبيان حالهم في الدنيا على الأرجح فما توحيه ظاهر الآية من سياق الوصف على وجه التشبيه لا على الحقيقة فهم ليسوا على هذا الحال في مظاهر علاقاتهم الخارجية بل ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها** ﴾ (الأعراف : ١٧٩) ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ الحج : ٤٦ .

ومما يؤكد استظهار هذا المعنى أن الوصف الأخير لنمطهم المسلكي وهو قوله تعالى ﴿ **فهم لا يرجعون** ﴾ تتفرع عن الأوصاف الثلاثة الأول فهم لا يرجعون عن ضلالتهم التي اشتروها بالهدى أو لا يرجعون الى الهدى في هذه الدنيا مع الاشارة الى أن المنافقين أو الكفار حينما يرون العذاب ماثلاً فإنهم سيرجعون عن ضلالتهم بطبيعة الحال ولكن لا يفيدهم الرجوع .

وعلى هذه اللمحة فإن تعطيل المنافقين لحواس المعرفة بوصفها الوسائط الأساسية لمدارك الفطرة الصافية تجعل من تشبيههم بالصم البكم العمى وكأنهم كائنات صنمية جامدة لا يربطها بالمعنى الانساني سبب من الأسباب فهم أضل من الأنعام مجرد تماثيل من الشمع الفارغ الأجوف لا تقوى على احتمال النور فهي في عماء وظلام تتنكر للحق ولا ترجع الى صفاء الفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها .